

الإسلام ولغة القرآن

في نظر الجامعة السورية

تلقينا من وزارة خارجية الجمهورية العربية السورية اجوبة جامعة دمشق وجامعة حلب ومديرية البحوث ، بوزراء التربية من الاستفتاء الذي نظمته المكتب الدائم للتعمير في العام الماضي حول « علاقة الاسلام باللغة العربية » وقد وصلتنا هذه الابحاث بعد ان أصبح العدد السادس من مجلة « اللسان العربي » جاهزا للطبع فأرجأناها الى هذا العدد معتذرين :

افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيرا له .

غير انه لا ينبغي ان يكون خافيا في هذا الصدد ، ان مرد هذا التلازم انما هو نزول القرآن بلغة العرب ، فلولا ان الله عز وجل اقتضت حكمته اختيار هذه اللغة ترجمانا لكلامه وتعبيرا عن خطابه لكان شأنها كشأن أي لغة أخرى بل ولنشأ التلازم الذي ذكرنا بين الاسلام واللغة الاخرى التي كانت الحكمة الالهية تختارها .

ومن هنا نعلم انه لا يمكننا ان نقول بحال : انه لولا ان اللغة العربية هي لغة القرءان لما انتشر الاسلام .

والواقع التاريخي الذي يبدأ من عصر البعثة النبوية الى يومنا هذا ، اعظم دليل وبرهان على واقع هذا التلازم الذي ذكرناه ، وفيما يتعلق بواقع بيئتنا السورية خاصة ، فان مما هو مشاهد ومعروف عندنا لكل احد انه عندما كانت البرامج التعليمية عندنا في المدارس الابتدائية والثانوية تعني كثيرا بتدريس

لا ريب ان هناك قدرا من التلازم بين الاسلام واللغة العربية ، بمعنى ان الاسلام كلما ارتفع شأنه وشاعت احكامه ازداد معه شأن اللغة العربية قوة ورفعة وانتشارا ، وان اللغة العربية كلما ارتفع شأنها وتوسع انتشارها او ازدادت درجة التعمق فيها والدراسة لعلومها ، ازداد بذلك امر الاسلام ظهورا واصبح السبيل الفكري اليه اشد جلاء واستقامة ووضوحا .

وكيف لا يكون اشتداد الوازع الاسلامي اعظم سبيل الى قوة اللغة العربية والمزيد من انتشارها ، وان الاقبال على تعلمها انما يكتسب اذ ذاك معنى التعبد لله عز وجل والعكوف على فهم دينه واحكامه .

وقد فرغ الفقهاء من بيان انه يجب على المسلم ان يتعلم من اللغة العربية ما يبصره بحكم الله عز وجل في كتابه وسنة رسوله ما لا غنى له عنه ، وفي ذلك يقول الامام الشافعي رحمه الله في كتابه « الرسالة » :

(فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما

اما فيما يتعلق بمدى تأثير الفكر الاسلامي من طريق لغة القراءان في اللهجات او اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية ، فان الامر يختلف بالنظر الى اختلاف التاريخ .

ففيما مضى ، وحينما كان سلطان الاسلام منبسطا على نفوس الشعوب الاسلامية وسلطانها الحاكمة معا ، كان تأثير الاسلام على اللهجات واللغات الاقليمية تأثيرا عظيما وكليا ، ولا يجهل احد ان معظم البلاد العربية اليوم انما كان اهلها اخلاطا من الاجام المختلفة ، ولا يجهل احد ان التاريخ القديم والقريب يملأ اذهاننا بأمم من الاكراد والأتراك والفرس والشركس والهنود تجردوا عن خصائصهم اللغوية ، وصقلت السنتم اللغة العربية بتأثير من الفكر الاسلامي الذي سيطر على نفوسهم .

اما اليوم فمن المؤسف ان نقول : ان التأثير الاسلامي في اللغات الاقليمية او اللهجات المحلية لم يعد قويا كما كان ، ذلك ان سلطان الاسلام قد انحسر مده ولم يعد يتجلى الا في نفوس الشعوب الاسلامية كشعوب ، وهذا القدر لا يكفي لظهور اثر الاسلام ولغة قراءانه على اللغات الاقليمية او اللهجات العربية المختلفة .

ان اللهجة الاقليمية التي تشيع في تعابير اقليمنا السوري ، ليست من اللهجات البعيدة من اللغة العربية الاصيلة ، ومن ثم فان تأثيرها على اللغة العربية تأثير جزئي ولا ريب ان يضعف ويقوى حسب اختلاف التأثير الديني قوة وضعفا .

ومع ان هنالك لهجة عربية اقليمية لدينا ، فان اللغة العربية الاصيلة ، هي وحدها اللغة العلمية واللغة الدراسية في شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي ، ومهما كانت العلوم التي تدرس فان الاداة التعبيرية عنها هي اللغة العربية وحدها .

اما اللغات الاجنبية ، فشانها كشأن المواد الدراسية التي يتلقاها الطالب في المدرسة قصدا الى تميم مقوماته الثقافية وتسهيلا لوسائل الترجمة والتعريب .

القراءان والعلوم الدينية ، كانت الملكة العربية لدى الطلاب في غاية القوة والاشراق وكانوا من اجل ذلك يهضمون في دراستهم العربية منهاجا زائرا بالصمق والقوة ، فلما قلت العناية اخيرا بالقراءان ودراسته وما يحف به من العلوم الدينية التي ثبت الوازع الديني في النفوس وتشد من ازره ضعفت الملكة العربية لدى الطلاب ضعفا بينا وخطيرا ، واصبح منهاج الدراسة العربية ، رغم ضآلته الشديدة بالنسبة للمنهاج القديم عقبة كاداء في طريق الطالب لا يكاد يجتازها الا زحفا وجرا . . هذا بالرغم من حشد كل ما قد يظن انه ضمان لتقوية الطلاب في هذه المادة ، في النظام الدراسي العام ، من مثل الاكثار من الساعات الدراسية ، واشتراط المزيد من الدرجات للنجاح فيها وما الى ذلك .

ولا ريب ان من نتيجة التلازم الذي ذكرناه ، ما هو واضح لكل متأمل من تأثر الوازع الديني والوحي الاسلامي بما يعترى اللغة العربية من قوة او ضعف .

ونحن هنا لا بد ان نفرق بين العاطفة الاسلامية ، والوحي الاسلامي ، فاما العاطفة ، فللالتلازم بينها وبين اللغة ضئيل ، ومرد ذلك الى ان للاسلام في مجموعه سلطانا على الفطرة الانسانية اذا خلى وشأنها ، فالفطرة تنقاد وتتأثر بالاسلام كمقيدة وايمان دون اي حاجة الى وساطة لغة ، اما الوحي الاسلامي وما يتبعه من الوازع الديني الصحيح ، فان منافذه الى الفكر والعقل لا يكون الا في طريق اللغة العربية .

ان بلدة اسلامية كتركيا مثلا ، لا يعدم معظم اهلها عاطفة دينية متاجعة رغم جهل عامتهم باللغة العربية ، ولكنهم لا يركنون اطلاقا الى اي ركن شديد من الوحي الاسلامي الذي هو وحده الذي يقدر ان يحمي افكارهم الدينية من اي تلبيس او خداع ديني قد يتسلل اليهم .

ومن اجل ذلك ملاحظة ان الكيد التبشيري ضد الاسلام انما يستهدف تلك المناطق الاسلامية التي توجد فيها حرارة عاطفية نحو الدين ، ولكنها تعيش قاصية عن الوحي الاسلامي بسبب انحباسها في سجن العجمة وانسداد المنافذ التي توصل افكار اهلها بحقيقة الاحكام الاسلامية وما تنطوي عليه من منهج وتنظيم